الرموز الإسطورية في الفن العراقي المعاصر... جواد سليم إنموذجاً

ناجح المعموري

(١-٣)

تثير تجربة الفنان جواد سليم الكثير من الأسئلة والقراءات وهي ما زالت يقظة، وحيةً، استولدت عدداً مهماً وكبيراً من الدراسات التي اتفقت جميعها على أهمية هذا الفنان وتميز تجربته وتنوعها الغزير، ومستوياتها العديدة، التي أثارت هذه القراءة المتنوعة والتي نجدها أحياناً تتفق مع ملامح عامة في تجربته الفنية، لكنها لم تدخل في تفاصيلها الدقيقة، ونعرف أن أكثر الدراسات،

إذا لم تكن أغلبها قد أشارت إلى وعي جواد سليم لمصادر تجربته، وحصراً العناصر الأسطورية التي عرفتها حضارته القديمة، ابتداءً من سومر التي ووصولاً إلى آشور وكثيرا ما صرح بذلك، وأكد استفادته من تلك العناصر في لوحاته الفنية وأعماله النحتية، وسأحاول في هذه الدراسة الإشارة لعناصر أسطورية، وخصائص عراقية قديمة جداً استثمرها جواد سليم بوعي عال، وفي أحيان أخرى استلهم منظومات رمزية وأعاد الاشتغال عليها، لذا فإن هذه الدراسة، تبغي إثارة الحوار حول هذه التجربة وخصوصاً مع الأسماء النقدية التي درست تجربة جواد سليم، وغابت عنها تلك العناصر عبر تفاصيلها الدقيقة، أو مارست حرفاً لوظائفها أو أسبابها ودوافعها الحضارية، وصلتها مع الديانات القديمة التي عرفتها حضارات الشرق الأدنى القديم، لذا فإني أدعو إلى إغناء هذا الاستثمار عبر الكشف عنه وقراءة مستويات تشكله الفني.

لقد شاع في الدراسات الفنية، كون الفنان الراحل جواد سليم قد استعان بالفن البغدادي القديم، واستفاد من الطرق البسيطة والموحية واستثمر بعض الرموز البغدادية الإسلامية كالأهلة والأقواس والأبواب، وذلك باعتبارها تمثل أبرز ملامح الفن البغدادي الذي وضع أسسه الواسطي. لقد أكدت كل الدراسات هذه الخصائص الواسطية في تجربة جواد سليم، وهي متحققة فعلاً، لكن الاستثمار الفني لجواد، قد أعاد صياغة الملامح الواسطية تماماً وابتعد عن الفضاءات المزدحمة، وأسس فضاءه المتسع وفراغاته، مثلما ابتعد عن الزخرفة والتزويق، وإن ظهرت بعض العناصر، فهذا لا يشكل إلغاء تجربة جواد سليم وإنما يمنحها ملمحاً ومنفرداً، حمل شخصيته المتميزة تماماً، ومازج بين ما هو يومي (واقعي) بغدادي بملامحه الشعبية وبين ما هو عراقي/ قديم... باعتباره يمثل جذراً مبكراً ومعروفاً في الحضارة القديمة، مثلما يؤكد هيمنته التاريخية على ملامح الفن العراقي القديم، الذي كان وسيلة من الوسائل المهمة التي استعانت بها المؤسسة الكهنوتية للإمساك بالطقوس والعقائد وتدوينها من خلال الفن/ الأختام الإسطوانية، والدمى والتماثيل.

لذا فإننا يجب أولاً أن نتعامل مع موجودات الحضارة العراقية القديمة (قبل الكتابة) باعتبارها مدونات نصية حسب المفاهيم النقدية المعاصرة لذا فإننا نستطيع الاعتماد على كل نتائج الحضارة العراقية. وقبل اختراع الكتابة. من أجل تأشير ملامح وتفاصيل الديانة العراقية القديمة.

ولذا فإن جواد سليم قد قرأ بوعي متقدم مراكز الحضارة القديمة وأمسك بعناصرها من خلال الفن وهذا ما يلاحظ بوضوح عبر خصائص سومرية وأكدية (بابلية/ آشورية) حيث استعان بها كوسائل فكرية/ وفنية للتعبير عن رؤياه تجاه الحياة والعام.. ومستثمراً وبدقة عالية أصول تراثه البليغ، ممتداً به ومعه نحو الحاضر...

وهذا ما أوقع الحركة النقدية وسط إشكالات أساسية ومهمة، أولها قراءة تجربة جواد سليم - مثلاً - بالعمارة الإسلامية والمنائر والأهلة، وإذا أردنا أن نوسع مساحة اتفاقنا حول هذه التجربة، فنستقبل هذا الرأي، ولكن، في الحقيقة الكلية لا يمثل هذا قراءة دقيقة جداً، لاحقت جينولوجيا التجربة الفنية. وموضوعة الأهلة واحدة من أهم وأخطر استثمارات جواد سليم لعناصر الحضارة العراقية والشرق الأدنى وهذا ما سنلاحقه كثيراً من أجل إضاءة هذا العنصر الحيوي الذي تداخل ليكون منظومة أسطورية/ دينية قديمة، وأخرى دينية تاريخية وشمولية. وما يؤكد هذا الرأي معرفتي الدقيقة للخطابات الأسطورية، وتعاملي مع تجربة جواد سليم مرتبطاً مع النص/ اللوحة، معتمداً عليها فقط، نافضاً وإلى الأبد ممكنات المواجهات الخارجية، والمرجعيات التي صاغت معالم تجربته. وسأحاول قراءة هذه العناصر بهدوء ودقة، وساعياً إلى محاولة، أعتقد بأنها جديدة في تفاصيلها الداخلية.

لقد اتفقت كل الدراسات الخاصة بتجربة جواد سليم على شيوع الأهلة في أعماله وحتى تحولت إلى ملمح بارز ساهم بصياغة تجربة بارزة ومهمة، ومارست فعل تأثير خلاق على تجارب لاحقة. إن استثمار جواد سليم للهلال، لم يكن بتأثيرات إسلامية فقط ومن يريد دراسة هذا العنصر عليه أن يمتد نازلاً في البحث الجينولوجي، حيث كان الهلال رمزاً للاله (نانا) السومري ومنذ البدايات المبكرة جداً للحضارة العراقية في أور، وظل هذا الرمز/ العلامة يتبلور، تدريجياً، حتى تحول إلى منظومة رمزية طاغية خلال الحضارة الأكدية (البابلية/ الآشورية) ولم يكتف بذلك بل صعد في كل حضارات الشرق والعالم، مما جعله متمركزاً في ديانات العالم، واتسع كثيراً، حتى صار له تأثير معرفي واسع جداً، وانقسم التاريخ الحضاري إلى مرحلتين، أولهما وهي الحضارة القمرية/ الأنثوية/ الإخصابية/ الزراعية وثانيهما الحضارة الشمسية/ الذكرية/ البطرياركية، وتميزت كل مرحلة من هذه المراحل بملامحها الخاصة وخصائصها المتفردة في إنتاج الثقافة والمعرفة، وكان الصراع بين القمر والشمس صراعاً معرفياً، مثلما في إنتاج الثقافة والمعرفة، وكان الصراع بين القمر والشمس صراعاً معرفياً، مثلما كان عبارة عن تنازل قوي حول هيمنة الأنثى أو الذكر ومعروفة تفاصيل الصراعات التي جرت بينهما وكيف انهارت سلطة الألوهة المؤنثة في إنتاجها للخطابات المعرفية العديدة، وصعود سلطة الذكورية البطرياركية وتدميرها لمراكز الألوهة المؤنثة في الحياة، لكن السلطة الشمسية لم تستطع القضاء أبداً على العلامات التي تشير إلى الآلهة ولكنها مارست تحويراً واختزالاً لبعض رموز الآلهة، لكنها لم تستطع أبداً على رمز الاله القمر والذي اقترنت به حضارة زراعية/ أنثوية كاملة.. وظل القمر أو الهلال مهيمنة دينية طاغية، تشكلت منذ ابتداء الحضارة العراقية وصاعداً إلى حضارة أكد ومرحلة الانبعاث السومري والأكدي ومن بعد الحضارة الآشورية، لذا فإن الدراسات الخاصة بالخطابات الأسطورية قد أشارت إلى معبد الاله أدد في سوريا والذي ظل يتغير في مراحل الديانات الشمولية، إلى أن استقر جامعاً إسلامياً، ارتفع فوقه الهلال الذي يميز ملمح الجوامع والمساجد.

لذا يبدو لي أن جواد سليم، قد تعامل مع منظومة رمزية ذات اتساع فكري كبير جداً، وعبر هذه المنظومة اختزل واختصر تاريخ حضاري طويل، امتد لعشرات الآلاف في السنين، ويبتدي وعي جواد سليم التالي جداً في تعامله مع هذه المنظومة الرمزية المهمة، من خلال إعادة صياغته، صياغة، تبدو في إطارها الخارجي مختلفة، لكنها في تكونها الكلي متماثلة مع ملامح المنظومة الرمزية المحيطية وهذا ما يمكن الإشارة لتجسده في لوحة/ نص طفلان يأكلان الرقي، حيث ذاب الهلال/ القمر تماماً في شكل مختلف، منحه الاختلاف الوظيفة الجديدة التي توصل لها المبدع في تعامله مع علاماته الدينية ومنظوماته الفكرية. وما يدعم هذه القرائن، تجسدات فكرية أخرى وهي كثيرة، تجسدات، منحت الألوهة المؤنثة/ المرأة/ الأم الكبرى دوراً طاغياً في لوحاته/ نصوصه البصرية، حيث كان للمرأة/ الأم أهم الوظائف، وهذا ما يبتدي في نصب الحرية (سندرسه بشكل مختلف) والشجرة القتيلة والقيلولة، وهنا يتداخل الرمز الديني وتتشاكل مفاهيم فكرية، اتسعت لاحتضانها تجربة جواد سليم الذي كثيراً ما أكد على جذور تجربته وشموليتها، وربما كان جواد سليم أول فنان عراقي يؤكد أهمية وخطورة المنجز العراقي القديم، لذا فإنه معني بربط الماضي والحاضر والمستقبل من أجل (التوصل للطابع المحلي، ولا أقصد بالمحلية رسم إعرابي أو مئذنة عراقية مثلاً، بل هي الميزات الخاصة التي تثيرها في الفنان فتكسو روح أعماله).

قصة قصيرة

الخيـــــط

لؤي حمزة عباس

دس الشريحة في جيب سترته وخرج، لم يفكر لحظة التقط كبسولات الامبيسيلين بخطر الإسهال، كان الصيدلي منشغلاً بالوجوه التي تطل من بين فتحات سياج المنضدة فيما تواصل أصابعه عد رزمة من الأوراق النقدية، لم يكترث لحديثه عن حرقة البلعوم، ومن دون أن يرفع رأسه أو يجيب التقط شريحة كبسولات من إحدى علب الكارتون المفتوحة أمامه وألقى بها قريباً من فتحة الخشب الدائرية، ثم ألقى الأوراق في جرار مفتوح اسفل المنضدة، تصوره مفتوحاً حال استماعه للأوراق تسقط بصوت مكتوم وحاول أن يقول شيئاً لكن الكلمات كانت تترك أثراً جارحاً في بلعومه قبل أن تخرج وقد أجهده السعال أياماً ثلاثة، أخذ ينوء خلالها، محني الظهر، بألم صدره.

تناول الكبسولات واحدة واحدة، ابتلع الأوليين في وقت قصير، وفي الليل فز على تلاطم عوامات الجسر الحديد وقد إنطفأ ضجيج السيارات وسكنت الشوارع. مد يده مغمض الغنين إلى الشريحة كأنما ليقتص بالكبسولة الثالثة من شبح الظلمة، وفي الصباح كان الألم قد نزل إلى بطنه مثلما نزل قبل أكثر من عام بعد أن تناول الامبيسيلين إثر سقطه في حمام. لن يخطر في بال أحد أنه سيسقط ذات يوم على رأسه في حمام شقة أحد الأصدقاء فينفجر دمه شلالاً له رائحة الملح الرطب ويصبغ الأرض البنية بلون غامق، لكن ذلك ما وقع له بالفعل، بعد أن عاش مشهداً غريباً وهو يتزل على درجات سلم مكتب بريد باب المعظم الحجرية الواسعة وفي فمه لا يزال طعم الصمغ الجاف خفيف الحلاوة وقد بلل بطرف لسانه مظروف رسالته، وجد أمامه أحد أصدقائه القادمين من الموصل، حدثه عن بغداد والنهارات التي لا معنى لها ونساء كراج الميدان وأشياء أخرى، عيناه غير مستقرتين تلاحقان العابرين حتى وصل به الحديث إلى السفر، سأله ألا تفكر، حقاً، بالسفر، وأكمل هو مجيباً سؤاله كيف يمكننا أن نسافر وحياتنا مشدودة بخيط، قال ذلك أو شيئاً قريباً منه ثم قرب وجهه وأضاف بصوت واطئ لن ينقطع الخيط حتى يسقط صاحبنا وها نحن شبنا بانتظار اللحظة التي يعلن فيها أن قدمه زلت به فسقط في أحد حماماته، كان يضحك بجدية، يسعل قليلاً ويقول من دون السقطة ستبقى حياتنا معلقة تلمسها الريح فتهتز مثل رقاص ساعة قديمة. يصعب أن يصدق، كلما استعاد الحادثة، أن مزحة الصديق لم تكن أكثر من نبوءة بسقطته هو ودوران العالم من حوله، يرفع يده، كلما تذكر، لعله يرى الخيط مشدوداً إلى أصابعه، لكنه يفضل أن يفكر بالأمر بوصفه تعليقاً على ما حدث فقد نزل درجات سلم مكتب البريد مربوط الرأس، هكذا يفضل أن يستعيد المشهد بعد أن وقع ما وقع ليشاهد، مصادفة، صديقه الموصلي ويتحدثان الحمام والسفر والخيط والريح والحياة التي تشبه باهتزازها رقاص ساعة قديمة... يتحدثان عن ذلك فيما يتحسس طعم الصمغ الجاف يذوب في فمه ويرى عيني صديقه تلتهمان من حولهما كل شيء، ثم يرى نفسه يتحرك عارياً، على ظهره تزل خيوط مائية ملتمعة قبل أن تزل به القدم ويتهاوى، يده تتخبط، مفتوحة، في الفراغ ثم يصطدم رأسه بحافة حوض الألمنيوم ويسمع الألم يتفجر ويرى الدم وقد غطى جسده النظيف.

٢٠٠٣/١١/٣٠

نشـــــر

سهام جبار

أنا أقرأ
وأنت تضحك
فعلى الجانبين
مدينتان:
الحرب، والولادات.
هل أنت صبي
وحكمتي تدغدغك..؟
وهل إذ نشرت البحر
وقعت أنت مع النشارة؟
تخرج ثائرا:
الإغراق بالتجذيف محدد
وأصيد مع الحلية
الكتاب والشاطئ:
اقرأ وجذف
اقرأ وامخر في البحر سأنشرك
ومنشار أسماكي
يجول ستسبح مهتماً
اكتشف الأرض، خذ القلم
تعلم الموت خذ
(الفصل في الجحيم) اكتشف
اللّه اللّه اللّه اكتشف
لا تبك يا حبيبي
دعك من ذلك كله
فقط رافقني.

إلى موسى
١١ شباط ٢٠٠٣

مناشدة مندائية - الاعتراف بالآخر

موسى الخميسي

يمر العراق هذه الأيام بأصعب مرحلة تاريخية حيث المخاطر تحيط به من كل جانب وتهدد وجوده ووحدته ومستقبله إضافة إلى حالة الغضب الذي يملأ نفوس العراقيين من الحالة التي يمر بها بلدهم من تدهور الأمن والظروف المعيشية الصعبة.

وفي هذا الزمن الذي يشتد فيه سعار النزعات الطائفية والعشائرية والتكفيرية، تتم عملية تغييب وحجب الآخر، ليخفت صوته، أو يرغم على الصمت.

ونزعة الاستكبار هذه التي تمارسها بعض الأحزاب والجماعات الدينية والطائفية في العراق، تنصب لنفسها دور احتكاري في توزيع الغنائم، وآخر بوليسي يتسلم شرعيته الكاذبة من الدين، ليستعمل السلاح الأصولي في رفض الآخر، بداية بتكفيره وانتهاء بهدر دمه كما يحصل هذه الأيام مع أبناء الطائفة المندائية في جنوبي العراق.

لقد تفنن البعثيون خلال سنوات حكمهم في صنع ظاهرة العنف التي امتدت إلى دقائق الحياة العراقية لتكتسب شموليتها وتكاملها بمرور الزمن، ولقد جر هذا العنف إلى مطحنته مئات الآلاف لا لسبب ما فعلوه لكن بسبب ما فكروا به واعتنقوه من عقائد وقيم وأفكار، ولم يسلم أبناء الطائفة المندائية من سياسة حافة الخوف التي كانت تنتهجها مؤسسات الدولة آنذاك، فتلثم الصابئي المندائي في ذلك الزمان كما هي الحال هذه الأيام، بكوفيته (غترته) ليخفي لحيته من الظهور، وبعضهم وضع لها دبوساً ليطويها حتى تختفي تحت رقبته من أجل أن لا يسمع كلمات الإهانة والتهديد والمطالبة بدفعه الجزية ما دام من أهل الذمة في زمن مثل زمننا الحاضر يطلق عليه ما بعد الحداثة، فنزلت الجفون المندائية خفية من أن يقطعها حد السيف، وفرض التعتيم والقسر واجبرت نساؤنا المندائيات على العودة لعصر الحريم والتخلف وارتداء الأحجبة السود الغريبة عن ثقافتنا العراقية المنفتحة، كما صار العديد من الشباب يبدلون اسم ديانتهم في مستندات الجنسية وشهادة الجنسية العراقية ليحولوها إلى إسلامية مخافة النظر إليهم كأعداء في وطنهم الذي سكنه أجدادهم منذ آلاف السنين.

ويبدأ المنفى الجديد داخل الوطن ليجعل المندائيين في انكفاء مؤلم، فبعد أن كان آباؤنا يصرون على عدم تعلمنا اللغة المندائية الآرامية مخافة إن تكتشف معاداتنا الوهمية لأبناء جيلنا من زملاء مقاعد الدراسة، أصبحت هذه اللغة اليوم منفى عازلاً، عوضاً أن تكون تعبيراً وانعكاساً عن العلاقة الثقافية المتحركة بين الذات المندائية ومجتمعها، فأغلقت منافذ الرؤيا والتعبير بحجة التمسك بعصا الشريعة وبالعودة إلى الجذور، تخفي في طياتها انحطاط التخلف وفرض الجهل.

إلا أن الآباء المندائيين في بلدان المهجر ومن منفاهم ما زالوا مع حلم كل أبناء العراق في سعيهم الدائم للحياة العصرية الحديثة، حلم بمشروع حضاري لعصر جديد من الحرية والديمقراطية والإبداع والمواطنة الحقيقية المتساوية بمختلف ألوانها وانتماءاتها، يكون فيها حق الاعتقاد والعبادة اصيلاً وليس منة من الأكثرية للأقلية فحضارة الأمة المتقدمة تقوم على وعيها وفكرها وليس على سيفها ورمحها.

المندائيون اليوم يعلمون أولادهم أن الديمقراطية هي فن الاعتراف بالآخر، وهي لا تقوم على قوانين بل تقوم قبل كل شيء على ثقافة سياسية. يعلمونهم بذخيرة الوطن متلمسين ذكرياته، كما لو إنها أشياء حية، يلقنونهم تفاصيلها وجوهرها، وتتصل أدعيتهم الدينية بالوطن وتتجه أغانيهم إلى ألوان فسيفسائه وأشكاله.أما في داخل الوطن فإنهم يتقطرون خوفاً وتحذيراً من الفضاءات المفتوحة على العنف التي لم يسلموا منها في ظل أعتى الديكتاتوريات القمعية في العالم ليصبح كل منهم الآن تحت المشهد القسري في تحويل عقيدته الدينية.

الواجهة الشرعية الحالية بعد سقوط النظام السابق، تبقى هشة ممنوحة من فوق، وقابلة لأن تسترد في أية لحظة بوجود حياة طوارئ للنظام الحالي، وإزاء هذا الوضع الخطر لا يريد أحد منا في الداخل أو الخارج أن يضع حياته وإيمانه موضع التجريب لنيات قادرة على جعل كل الضمائر الحية تشعر بالوجع.

فالآخر الذي هو نحن، يمتلك سمات تاريخية ومعرفية وثقافية، ومفهوم الوطن متجذر في وعيه وفكره، له مطالبه ويسعى لتوسيع وبناء مجاله الثقافي، كما إن هذا الآخر يدرك تماماً بأن الرغبة بالتمايز جوهرية في مسيرة أي مجتمع معاصر، لأنه يعرف نفسه قدر معرفته للآخرين الذين حوله، مع التأكيد على شعوره بأنه جزء من كيان اجتماعي متعدد القوميات والأديان والثقافات، إلا أنه يحتاج أيضاً إلى ترسيخ إحساسه بكينونته بوصفه جزءاً مكملاً من فسيفساء البناء، لان مثل هذا جوهري لهويته التي ينبغي النظر إليها بوصفها أرثا مشتركاً يساهم بربط الثقافات الأخرى داخل وحدة البناء الاجتماعي.

الاعتراف بالآخر يعني قبوله في المراكز والوظائف المرموقة بالدولة، واحترام هويته وانتمائه الفكري والديني والثقافي، وعدم النظر إليه بوصفه غريباً ووضع سياج لفصله عن محيطه، إنه غير قابل للانفصال عن كينونات مجتمعه الأخرى، فمثل هذه العلاقة حاسمة لفهم دورة التفاعل الاجتماعية المشتركة التي تشترط التفاعل والاتصال بطريقة تحفظ التلاحم الداخلي وتسمح بالاحترام والاعتراف بينه وبين الآخرين، إذ لا يمكن لأي مجتمع متعدد الثقافات أن يتواصل في سيرورته من خلال سحق وتهميش وتغييب الآخر.

المطلوب من الجميع وخاصة مجلس الحكم الحالي، جهد واعٍ لمعالجة ظاهرة إبعاد وتهميش الآخر عن المسؤولية في اتخاذ القرار في عملية إعادة بناء الجسد العراقي وما يحمله من مفاهيم وقيم ووظائف وعلاقات، فالآخر حتى وإن كان صغيراً قياساً للآخرين، فهو بحاجة إلى إعادة صياغة إحساسه بالهوية الوطنية التي تكفل له التعامل مع عملية البناء الجديد لهذا الجسد المريض، تتوافق مع ما موجود، فله خبرته وكفاءته ومقدرته، نطالب الجميع السعي بعدم فصله وركنه في زاوية بعيدة حتى لا يشعر بأنه غريب عن بلده.